



ومن السُّبُلُ النَّافِعَةُ فِي اجْتِمَاعِ الْأَمَّةِ وَائِلَّا فَهَا: إِعْمَالُ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ عَلَى مَسْطَوِيِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ مَعَ جَمِيعِ الْخَلْقِ حَتَّى مَعَ الْكَافِرِ، وَيَتَأَكَّدُ هَذَا الْوَاجِبُ فِي حَقِّ مَنْ يَتَصَدَّى لِلْحُكْمِ عَلَى الْآخِرِينَ فِي الْخَصْوَاتِ وَالْمَقَالَاتِ مِنْ حَكَامٍ وَقَضَاءٍ وَدُعَاءٍ، قَالَ شِيفُ الْإِسْلَامِ فِي "مِنَاهَجِ السَّنَةِ النَّبُوَيَّةِ" (337/4): "وَالْكَلَامُ فِي النَّاسِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ، لَا بِجَهْلٍ وَظُلْمٍ، كَحَالِ أَهْلِ الْبَيْدَاعِ".

وقد أمر الله بالعدل في الأمور كلها فقال عز وجل: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** [النحل: 90].

وأمرَ به مع القريب والبعيد، والصديق والعدو، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمُنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [المائدة: 8]. قال الطبرى فى تفسيره : "يعنى بذلك جل ثناوه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله،شهداء بالعدل فى أوليائهم وأعدائهم،ولا تجوروا فى أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ماحددت لكم فى أعدائهم لعداوتهم لكم،ولا تقصروا فيما حدث لكم من أحکامي وحدودي فى أوليائهم لعداوتهم لكم ، ولكن انتهوا فى جميعهم إلى حدى واعملوا فيه بأمرى". وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى "مناهج السنة" 127/5: " وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذى أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف في بغض مسلم بتأنيل وشبهة أو بهوى نفس؟! فهو أحق أن لا يُظلم، بل يُعدل عليه".

ولما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة يخرص ثمر خير قال لهم عبد الله رضي الله عنه : "والله لقد جئتم من أحب الناس إلي ، ولأنتم أبغض إلٰي من عدتك من القردة ، والخنازير، ولا يحملوني بغضي إياكم على أن لا أعدل

عليكم ، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض" ، أخرجه البخاري.

ورتبَ الله الأجر العظيم للعادلين المنصفين ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِّنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ - وَكُلُّنَا يَدِيهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَمَا وَلُوا.**

والظلمُ مرتعه وخيمٌ في الدنيا والآخرة ، فالله لا يحبُ الظلم والظالمين ، قال تعالى: **{ وَاللَّهُ لَا يُحِبُ الظَّالِمِينَ }** [آل عمران: 57] ، ولعظم الظلم فقد حرّمه الله على نفسه فقال في الحديث القديسي: يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محراً ، فلا تظالموا " ، رواه مسلم .

ومن نفائس كلام شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" (146/28): "أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم: أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشرك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحيم". فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورة له مرحوما في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء؛ فإذا أقيمت أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة".

قلت: ياليت أهل الغلو من الفسائل المقاتلة في الشام وغيرها تعني هذا الكلام وتعمل به، فإن ماتراه من انحرار داعش وأخواتها إنما سببه الأعظم البغي والظلم.

لقد عمّ عدل المسلمين حتى غمر أهل الذمة من اليهود والنصارى، ويدرك أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله كتب إلى واليه على البصرة يقول له: "ثم انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه، وضعف قوته وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفك إن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك ثم ضيئنك في كبرك، ثم أجري من بيت المال ما يصلحه".

ولقد تميّز أهل السنة والجماعة خاصةً من بين الفرق بالعدل والإنصاف وخاصةً مع مخالفاتهم، قال شيخ الإسلام في " منهاج السنة" (5/158) : "أهل السنة يستعملون مع أهل الأهواء العدل والإنصاف، ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرام مطلقاً، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون به".

وهذا العدل والإنصاف له صوره المتعددة التي كانت قدّيما عند سلفنا وينبغي علينا اليوم إحياؤها ونشرها حتى تكون ثقافة عامة بين جميع طبقات الأمة، ومن هذه الصور:

1- من ظلمنا فكفرنا أو بدأنا فلا يجوز لنا أن نكفره أو نبدعه ردًا لظلمه، وإنما حكم عليه بما هو أهله، قال شيخ الإسلام في "الرد على البكري" (2/492): "فلهذا كان أهل السنة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم، لأن الكفر حكم شرعى وليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك وزنى بأهلك؛ ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله، لأن الكذب والزناء حرام لحق الله. وكذلك التكفير حق لله فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله".

2- ومن العدل والإنصاف أن لا ننسب للأفراد أو الجماعات مالم يقولوه ويعملوه، وخاصة منهم العلماء والجماعات والهيئات الإسلامية، فإن نسبة الباطل لهم ظلم وجهل وبيؤدي إلى الشحناء والبغضاء فالتفرق والاختلاف.

3- ومن العدل والإنصاف أن لا نجعل جميع المخالفين لنا من كافرين ومبتدعين في طبقة ومرتبة واحدة، وهناك الكافر المقاتل لنا والمسالِّم، وهناك من هو بدعته مغلظة ودون ذلك، قال شيخ الإسلام في "الفتاوى" 35/201: كل من كان مؤمنا

بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو خير من كل من كفر به، وإن كان في المؤمن بذلك نوع من البدعة سواء كانت بدعة الخارج والشيعة والمرجئة والقدرية أو غيرهم، فإن اليهود والنصارى كفرا معلوما بالاضطرار من دين الإسلام، والمبتدع إذا كان يحسب أنه موافق لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا مخالف له لم يكن كافرا به، ولو قدر أنه يكفر فليس كفره مثل كفر من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم.

4- ومن العدل والإنصاف أن نعلم أن الشخص الواحد تجمع فيه الحسنات والسيئات، فلا يجوز لنا أن نلغي حسناته من أجل سيئاته، ولا نلغي سيئاته من أجل حسناته بل يعامل بما يقتضيه الشرع، قال شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" (27/478): "من أصول أهل السنة التي فارقوا فيها الخارج أن: الشخص الواحد تجمع فيه حسنات وسيئات، فيثاب على حسناته ويعاقب على سيئاته، ويحمد على حسناته، ويدم على سيئاته، وأنه من وجه مرضي محبوب، ومن وجه بغوض مسوخوط، ومذهب أهل السنة والجماعة: أنهم لا يكفرون أهل القبلة بمجرد الذنب، ولا بمجرد التأويل، بل الشخص الواحد إذا كانت له حسنات وسيئات فأمره إلى الله، وقال أيضا في "مجموع الفتاوى" (11/96): "أهل السنة والجماعة يقولون: ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أن المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وأن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه، وما يُحمد عليه وما يُدم عليه، وما يُحب منه وما يبغض منه؛ فهذا هذا".

5- ومن العدل والإنصاف أن نقبل الحقّ من نطق به ولو كان عدوًّا، وأن نرد الباطل ولو كان من القريب الحبيب، فالعبرة بالقول لا بالقائل، وفي قصة الشيطان مع أبي هريرة رضي الله عنه حين وكله الرسول صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، ومجيء الشيطان إليه أكثر من مرة حتى علمه أن يقرأ آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه، وأنه بذلك يكون محفوظاً من الله ولا يقربه شيطان حتى يصبح، في هذه القصة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم القول وإن صدر من الشيطان حيث قال: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَ وَهُوَ كَذَوْبٌ" رواه البخاري.

قال ابن حجر في "الفتح" 4/616: إن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها، وتؤخذ عنه فينتفع بها، وإن الكافر قد يصدق بعض ما يصدق به المؤمن ولا يكون بذلك مؤمناً، وبأن الكذاب قد يصدق.

ومن روائع كلام ابن القيم رحمة الله في "طريق الهجرتين وباب السعادتين" (ص: 393) قوله: "على أن عادتنا في مسائل الدين كلها وجّلها أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض ولا نتعصب لطائفة على طائفة، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق ونخالفها فيما معها من خلاف الحق. لا نستثنى من ذلك طائفة ولا مقالة، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك، ونموت عليه ونلقى الله به، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

ومن وصايا ابن مسعود رضي الله عنه: "اعْبُدِ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَذُلْ مَعَ الْقُرْآنِ حَتَّىٰ زَالَ، وَمَنْ أَتَاكَ بِحَقٍّ فَاقْبِلْ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا، وَمَنْ أَتَاكَ بِبَاطِلٍ فَارْدُدْهُ وَإِنْ كَانَ حَبِيبًا قَرِيبًا"، المعجم الكبير للطبراني (9/102).

ومن قمة التجدد عند الإمام الشافعي رحمة الله قوله: "ما نظرت أحداً إلا قلت: اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معه اتبعته".

ومن العجيب أن بعض الناس يتعجب لخصمه أن ينطق بالباطل ليطعن به وينفر منه وهذا خلق ذميم.

6- ومن العدل والإنصاف أن تعرف أن في المخالفين لأهل السنة من هو معذور ويستحق المغفرة ودائرة الإيمان تسعه لتشمله المغفرة كما نص على ذلك شيخ الإسلام بقوله في "منهاج السنة النبوية" (5/162): "إذا قال المؤمن: ربنا أغر لنا والإخوان الذين سبقونا بالإيمان، يقصد كل من سبقة من قرون الأمة بالإيمان وإن كان قد أخطأ في تأويله فخالف السنة أو أذنب ذنبًا فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان فيدخل في العموم وإن كان من الثنين والسبعين فرقة، فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين، والنبي

صلى الله عليه وسلم لم يخرجهم من الإسلام بل جعلهم من أمته ولم يقل إنهم يخلدون في النار فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته فإنَّ كثيراً من المنتسبين إلى السنة فيهم بدعة من جنس بدع الرافضة والخوارج".

وقال أيضاً في "مجموع الفتاوى" (28 / 234): "من عُلم منه الاجتهد السائغ؛ فلا يجوز أن يُذكر على وجه الذم والتأنيح له؛ فإن الله غفر له خطأه، بل يجب لما فيه من الإيمان والتقوى مواليته ومحبته والقيام بما أوجب الله من حقوقه: من ثناء ودعاء وغير ذلك؛ وإن عُلم منه النفاق، كما عُرف نفاق جماعة على عهد رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مثل عبد الله بن أبي ذؤيب، وكما علم المسلمون نفاق سائر الرافضة: عبد الله بن سبأ وأمثاله، مثل عبد القدس بن الحجاج، ومحمد بن سعيد المصلوب؛ فهذا يذكر بالنفاق، وإن أعلن بالبدعة ولم يعلم هل كان منافقاً أو مؤمناً مخطئاً ذُكر بما يعلم منه؛ فلا يحل للرجل أن يقفوا ما ليس له به علم، ولا يحل له أن يتكلم في هذا الباب إلا قاصداً بذلك وجه الله تعالى، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله؛ فمن تكلم في ذلك بغير علم أو بما يعلم خلافه كان آثماً".

نور سوريا

المصادر: